

الباب الأربعون: في الشجاعة وثمرتها والحروب وتديرها وفضل الجهاد وشدة اليأس والتحريض على القتال وفيه فصلان

الفصل الأول: في فضل الجهاد في سبيل الله، وشدة البأس

قد أثنى الله تعالى على الصابر في البأس والضراء وحين البأس، ووصف المجاهدين فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَانَهُمْ بِنِيبٍ مُرْضُوعًا﴾^(١) وندب إلى جهاد الأعداء ووعد عليه أفضل الجزاء، والرأي في الحرب أمام الشجاعة. قال رسول الله ﷺ: «الحرب خدعة». وقال ﷺ: «ما من قطرة أحب إلى الله من قطرة دم في سبيله، أو قطرة دم في جوف ليل من خشيته». وسمع رجل عبد الله بن قيس رضي الله عنه يقول: قال رسول الله ﷺ: «إن الجنة تحت ظلال السيوف». فقال يا أبا موسى: أنت سمعت رسول الله ﷺ يقول؟ قال: نعم. فرجع إلى أصحابه فقال: اقرأ عليكم السلام، ثم كسر جفن^(٢) سيفه فألقاه ثم مشى بسيفه إلى العدو فضرب به حتى قتل. وكتب أبو بكر الصديق رضي الله عنه إلى خالد بن الوليد: اعلم أن عليك عيوناً من الله ترعاك وتراك، فإذا لقيت العدو فاحرص على الموت توهب لك السلامة، ولا تغسل الشهداء من دمائهم، فإن دم الشهيد يكون له نوراً يوم القيامة. وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «حين انتهينا إلى خيبر، الله أكبر، خربت خيبر، إننا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين». وعنه رفعه: «لغدوة في سبيل الله أو راحة خير من الدنيا وما فيها». وعن ابن مسعود رفعه: «إن أرواح الشهداء في حواصل طيور خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل». وقيل إن أنس بن النضر، عم أنس بن مالك رضي الله عنه، لم يشهد بداراً فلم يزل متحسراً يقول: أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غيبته عنه، فلما كان يوم أحد قال: واهأ لريح الجنة دون أحد فقاتل حتى قتل فوجد في بدنه بضع وثمانون بين ضربة وطعنة ورمية. فقالت أخته الربيع بنت النضر: فما عرفتُ أخي إلا بينانه. وعن فضالة بن عبيد رفعه: «كل ميت يختم على عمله إلا المرابط فإنه ينمى له عمله إلى يوم القيامة، ويؤمن من فتنة القبر» وعن سهل بن حنيف رفعه: «من سأل الله الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه». فنسأل الله أن يرزقنا الشهادة ويجعلنا من الذين أحسنوا، فلهم الحسنَى وزيادة.

(١) سورة: الصف، الآية: ٤.

(٢) وعاءه أي: غمده.

الفصل الثاني: في الشجاعة وثمرتها والحروب وتدبيرها

اعلم أن الشجاعة عماد الفضائل، ومن فقدتها لم تكمل فيه فضيلة يعبر عنها بالصبر وقوة النفس. قال الحكماء: وأصل الخير كله في ثبات القلب، والشجاعة عند اللقاء على ثلاثة أوجه: الوجه الأول: إذا التقى الجمعان، وتزاحف المسكران وتكالتحت الأحداق بالأحداق، برز من الصف إلى وسط المعترك يحمل ويكزّ وينادي هل من مبارز؛ والثاني: إذا نشب القوم واختلطوا، ولم يدر أحد منهم من أين يأتيه الموت، يكون رابط الجأش، ساكن القلب حاضر اللب، لم يخالطه الدهش، ولا تأخذه الحيرة، فيتقلب قلب المالك لأموره، القائم على نفسه؛ والثالث: إذا انهزم أصحابه يلزم الساقة^(١)، ويضرب في وجوه القوم ويحول بينهم وبين عدوهم، ويقوي قلوب أصحابه، ويرجي الضعيف، ويمدهم بالكلام الجميل، ويشجع نفوسهم، فمن وقع أقامه، ومن وقف حملة، ومن كبا به فرسه حماه حتى يئس العدو منهم. وهذا أحمدهم شجاعة. وعن هذا قالوا: إن المقاتل من وراء الفارين كالمستغفر من وراء الغافلين، ومن أكرم الكرم الدفاع عن الحرم.

وحكى سيدي أبو بكر الطرطوشي رحمة الله تعالى عليه في كتابه سراج الملوك، قال: كان شيوخ الجند يحكون لنا في بلادنا قالوا: دارت حرب بين المسلمين والكفار ثم افرقوا فوجدوا في المعترك قطعة خوذة^(٢) قدر الثلث بما حوته الرأس، فقالوا: إنه لم ير قط ضربة أقوى منها، ولم يسمع بمثلا في جاهلية، ولا إسلام. فحملتها الروم وعلقتها في كنيسة لهم، فكانوا إذا عيروا بانهزامهم يقولون: لقينا أقواماً هذا ضربهم فيرحل أبطال الروم إليها ليروها. قالوا: من الحزم أن لا يحترق الرجل عدوه وإن كان ذليلاً، ولا يغفل عنه وإن كان حقيراً فكم يرغوث أسهر فيلاً، ومنع الرقاد ملكاً جليلاً قال الشاعر:

فلا تحقرنَّ عدوًّا رماك وإن كانَ في ساعدَيْهِ قصيرُ
فإن السيوفَ تحزُّ الرقابَ وتعجزُّ عما تنالُ الإبرُ

واعلموا أن الناس قد وضعوا في تدبير الحروب كتباً، ورتبوا فيها ترتيباً، منها أشياء نبدأ منها أولاً بما ذكره الله تعالى في القرآن العظيم قال الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِيَابِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾^(٣) فقله تعالى: ﴿ما استطعتم﴾ مشتملاً على كل ما هو في مقدور البشر من العدة والآلة والحيلة. وفسر النبي ﷺ القوة حين مرّ على أناس يرمون فقال: «ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي»، وأفضل العدة أن تقدم بين يدي اللقاء عملاً صالحاً من صدقة وصيام، ورد المظالم، وصلة الرحم، ودعاء مخلص، وأمر بمعروف، ونهي عن منكر وأمثال ذلك.

والشأن كل الشأن في استجادة القواد وانتخاب الأمراء وأصحاب الألوية؛ فقد قالت حكماء العجم: أسد يقود ألف ثعلب، خير من ثعلب يقود ألف أسد. فلا ينبغي أن يقدم الجيش إلا الرجل ذو البسالة، والنجدة والشجاعة،

(١) الساقة: مؤخرة الجيش.

(٢) خوذة: غطاء الرأس للمحارب.

(٣) سورة: الأنفال، الآية: ٦٠.

والجرأة، ثابت الجأش، صارم القلب، صادق البأس، ممن توسط الحروب، ومارس الرجال ومارسوه، ونازل الأقران، وقارع الأبطال، عارفاً بمواضع الفرص، خبيراً بمواقع القلب، والميمنة، والميسرة، من الحروب، فإنه إذا كان كذلك، وصدر الكل عن رأيه كانوا جميعاً كأنهم مثله، فإنه إن رأى لقراع الكتائب وجهاً، وإلا ردّ الغنم إلى الزريبة.

واعلم أن الحرب خدعة عند جميع العقلاء. وكان عظماء الترك يقولون ينبغي للعاقل العظيم القيادة أن يكون فيه عدة أخلاق: من البهائم شجاعة الديك، وبحث الدجاجة، وقلب الأسد، وحملة الخنزير، وروغان الثعلب، وصبر الكلب على الجراح، وحراسة الكركي، وغارة الذئب، وسمن نغير، وهي دويبة تكون بخراسان تسمن على التعب والشقاء، وكان يقال أشد خلق الله تعالى عشرة: الجبال والحديد ينحت الجبال، والنار تأكل الحديد والماء يطفىء النار، والسحاب يحمل الماء، والريح تصرف السحاب، والإنسان يتقي الريح بجناحيه، والسكر يصرع الإنسان والنوم يذهب السكر، والهم يمنع النوم، فأشد خلق ربك الهم، اللهم إنا نعوذ بك من الهم والحزن.

ومن الحيل في الحرب أن يث جواسيسه في عسكر عدوه ليستعلم أخبارهم، ويستميل قلوب رؤسائهم وذوي الشجاعة منهم، فيدس إليهم ويعددهم وعداً جميلاً ويقوي أطماعهم في نيل ما عنده من الهبات الفخيمة، والولايات السنية، وإن رأى وجهاً عاجلهم بالهدايا، وسامهم^(١) إما الغدر بصاحبهم، وإما الاعتزال وقت اللقاء، ويكتب على السهام أخباراً مزورة، يرمي بها في جيوشهم.

واعلم أن الحيلة لا ترد القضاء والقدر، وأن الدول إذ زالت صارت حيلتها^(٢) وبالاً عليها، وإذا أذن الله تعالى في حلول البلاء كانت الآفة في الحيلة. وقال الحكماء: إذا نزل القضاء كان العطب في الحيلة، ويغلب الضعيف بإقبال دولته، كما يغلب القوي ببقاء مدته، فمن الحزم المألوف عند سواس الحروب، أن تكون حماة الرجال، وكماة الأبطال في القلب، فإنه انكسر الجناحان كانت العيون ناظرة إلى القلب، فإذا كانت رايته تخفق، وطبوله تضرب، كان حصناً للجناحين، يأوي إليه كل منهزم، وإذا انكسر القلب تمزق الجناحان، مثال ذلك أن الطائر إذا انكسر أحد جناحيه ترجى عودته ولو بعد حين. وإذا انكسر الرأس ذهب الجناحان، وقلّ عسكر انكسر قلبه فأفلح، أو تراجع. اللهم إلا أن تكون مكيدة من صاحب الجيش، فيخلي القلب قصداً أو تعمداً حتى إذ توسطه العدو، واشتغل بنهبه انطبق عليه الجناحان، فقد فعل ذلك رجال من أهل الحروب. ويقال: حبب إلى عدوك الفرار، بأن لا تتبعهم إذا انهزموا. ويقال الشجاع محبب حتى إلى عدوه، والجبان مبغض حتى إلى أمه. ولما أقبل كسرى بن هرمز إلى محاربة بهرام قال له صاحبه: أما تستعد؟ قال: عدتي ثياب قلبي، وإصابة رأبي، ونصل سيفي، ونصرة خالقي، وخرج يزيد بن عبد الملك من بعض مقاصيره وعليه درع، وذلك في أيام قتال يزيد بن المهلب فأنشده مسلمة قول الحطية:

قومٌ إذا حاربوا شدُّوا مآزرهم دونَ النساءِ ولو باتتْ بأطهار^(٣)

فقال يزيد: إنما ذلك إذا حاربنا أكفأنا، وأما مثل هذا ونظرائه فلا، فقام إليه مسلمة فقبله بين عينيه. وقيل لما

(١) وسامهم: أذاهم.

(٢) وبالاً: وخيماً.

(٣) معنى البيت أنهم يعتزلونهم.

مات ملك الفرس أرادوا أن يملكو عليهم رجلاً من آل ساسان، فوفد عليهم بهرام جور فقال: اعمدوا إلى أسدين جائعين فأطرحوا بينهما التاج فمن أخذه فهو الملك ففعلوا، فدنا منهما فأهويا نحوه، فأخذ برأس أحدهما فأذناه من رأس الآخر ثم نطحه به فقتلها جميعاً، وشد على التاج فأخذه ووضع على رأسه وملكته الفرس عليهم.

وقيل: لم يكن في العجم أرمى من الملك بهرام، خرج يتصيد يوماً وهو مردف حظية له كان يعشقها، فعرضت له طياء. فقال: في أي موضع تريدان أن أضع هذا السهم. فقالت: أريد أن تشبه ذكرانها بالإناث، وأناثها بالذكران، فرمى ظيماً ذكراً بنشابة ذات شعبتين فاقتلع قرنيه، ورمى ظبية بنشابتين أثبتهما في موضع القرنين. ثم سأله أن يجمع بين ظلف الظبي وأذنه بنشابة، فرمى أصل الأذن ببندقة ثم أهوى الظبي برجله إلى أذنه ليحتك فرماه بنشابة فوصل أذنه بظلفه. ويقال إن من أعظم المكاييد في الحرب الكمين، وذلك أن الفارس لا يزال على حمية في الدفاع، وحمى الذمار، حتى يلتفت فيرى وراءه بنداً منشوراً، ويسمع صوت الطبل فحينئذ يكون همه خلاص نفسه، وعليك بانتخاب الفرسان، واختيار الأبطال، ولا تنس قول الشاعر:

والناس ألفٌ منهم كواحدٍ وواحدٌ كالألفِ إن أمرٌ عنى

بل قد جرب ذلك فوجد الواحد خيراً من عشرة آلاف. وسأحكى لك من ذلك ما ترى فيه العجب.

فمن ذلك: لما التقى المستعين بن هود مع الطاغية ابن روميل النصراني على مدينة وشقة من ثغور بلاد الأندلس، وكان العسكران كالمتكافئين كل واحد منهما يقارب عشرين ألف مقاتل، خيل ورجل. فحدث من حضر الواقعة من الأجناد قال: لما دنا اللقاء، قال الطاغية ابن روميل لمن يثق بعقله وممارسته للحروب من رجاله: استعلم لي من في عسكر المسلمين من الشجعان الذين نعرفهم كما يعرفوننا، ومن غاب منهم، ومن حضر. فذهب ثم رجع فقال: فيهم فلان وفلان فعده سبعة رجال. فقال له: انظر في عسكري من الرجال المعروفين بالشجاعة، ومن غاب منهم. فعدهم فوجدهم ثمانية رجال لا يزيدون. فقام الطاغية ضاحكاً مسروراً، وهو يقول: ما أبيضك من يوم. ثم ثارت الحرب بينهم فلم تزل المضاربة بين الفريقين، ولم يول أحد دبره^(١)، ولا تزحزح عن مقامه حتى فني أكثر العسكريين، ولم يفر واحد منهم. قال: فلما كان وقت العصر نظروا إلينا ساعة ثم حملوا علينا جملة، وداخلونا مداخلة، ففرقوا بيننا وصرنا شطرين، وحالوا بيننا وبين أصحابنا. فكان ذلك سبب وهتنا وضعفنا، ولم تقم الحرب إلا ساعة ونحن في خسارة معهم. فأشار مقدم العسكر على السلطان أن ينجو بنفسه. وانكسر عسكر المسلمين، وتفرق جمعهم، وملك العدو من مدينة وشقة فليعتبر ذو الحزم والبصيرة، من جمع يحتوي على أربعين ألف مقاتل، ولم يحضره من الشجعان المعدودين إلا خمسة عشر نفرأ، وليعتبر بضمان العليج^(٢) بالظفر، واستبشاره بالغنيمة لما زاد في أبطاله رجل واحد.

وحكى سيدي أبو بكر الطرطوشي رحمة الله تعالى عليه. قال: سمعت أستاذنا القاضي أبا الوليد يحيى، قال: بينما المنصور بن عامر في بعض غزواته إذا وقف على نشز^(٣) من الأرض مرتفع فرأى جيوش المسلمين من بين يديه،

(١) دبره: أي ظهره (أي لم ينهزم).

(٢) العليج بالظفر: الأجنبي الغليظ.

(٣) نشز: مرتفع.

ومن خلفه، وعن يمينه، وعن شماله. قد ملؤوا السهل والجبل، فالتفت إلى مقدّم العسكر وهو رجل يعرف بابن المضجعي فقال له: كيف ترى هذا العسكر أيها الوزير؟ قال: أرى جمعاً كثيراً، وجيشاً واسعاً كبيراً. فقال له المنصور: وما ترى هل يكون في هذا الجيش ألف مقاتل من أهل الشجاعة والنجدة والبسالة؟ فسكت ابن المضجعي. فقال له المنصور: ما سكوتك؟ أليس في هذا الجيش ألف مقاتل؟ قال: لا. فتعجب المنصور، ثم قال: فهل فيهم خمسمائة مقاتل من الأبطال المعدودين؟ قال: لا. ففتح^(١) المنصور، ثم قال: أفهم مائة رجل من الأبطال؟ قال: لا. قال: فيهم خمسون رجلاً من الأبطال؟ قال: لا. قال: فسبّه المنصور وأغلظ عليه وأمر به فأخرج على أسوأ حال، فلما توسطوا بلاد الروم واجتمعت الروم وتصاف الجمعان، فبرز علعج من الروم بين الصفيين شاكبي السلاح وجعل يكر ويفر ويقول: هل من مبارز؟ فبرز إليه رجل من المسلمين فتجاولا ساعة فقتله العلعج، ففرح المشركون وصاحوا واضطرب المسلمون لها. ثم جعل العلعج يموج بين الصفيين وينادي: هل من مبارز اثنين لواحد؟ فبرز إليه رجل من المسلمين، فتجاولا ساعة فقتله العلعج وجعل يكر ويحمل وينادي ويقول: هل من مبارز ثلاثة لواحد؟ فبرز إليه رجل من المسلمين فقتله العلعج. فصاح المشركون وذلّ المسلمون وكادت أن تكون كسرة. فقيل للمنصور: ما لها إلا ابن المضجعي، فبعث إليه فحضر. فقال له المنصور: ألا ترى ما صنع هذا العلعج الكلب منذ اليوم؟ فقال: لقد رأيته فما الذي تريد؟ قال: أن تكفي المسلمين شره. قال: الآن يكفي المسلمون شره إن شاء الله تعالى. ثم قصد إلى رجال يعرفهم، فاستقبله رجل من أهل الثغور على فرس قد تهرت أوراكاها هزالاً، وهو حامل قربة ماء بين يديه على الفرس، والرجل في حليته ونفسه غير متصنع. فقال له ابن المضجعي: ألا ترى ما يصنع هذا العلعج منذ اليوم، قال: قد رأيته فما الذي تريد؟ قال: أريد أن تكفي المسلمين شره. قال حياً وكرامة. ثم إنه وضع القربة بالأرض وبرز إليه غير مكترث به فتجاولا ساعة، فلم ير الناس إلا المسلم خارجاً إليهم يركض، ولا يدرون ما هناك وإذا برأس العلعج يلعب بها في يده ثم ألقى الرأس بين يدي المنصور. فقال له ابن المضجعي: عن هؤلاء الرجال أخبرتكم. قال: فرد ابن المضجعي إلى منزله وأكرمه ونصر الله جيوش المسلمين وعساكر الموحدين.

حكى أنه كان للعرب فارس يقال له ابن فتحون، وكان أشجع العرب والعجم في زمانه. وكان المستعين يكرمه ويعظمه ويجري له في كل عطية خمسمائة دينار. وكانت جيوش الكفار تهابه وتعرف منه الشجاعة، وتخشى لقاءه. فيحكى أن الرومي كان إذا سقى فرسه ولم يشرب يقول له: ويلك لم لا تشرب؟ هل رأيت ابن فتحون في الماء؟ فحسده نظراؤه على كثرة العطاء ومنزلة من السلطان. فوشوا به عند المستعين فأبعده ومنعه من عطائه. ثم إن المستعين أنشأ غزوة إلى بلاد الروم فتقابل المسلمون والمشركون صفوفاً، ثم برز علعج إلى وسط الميدان، ونادى وقال: هل من مبارز؟ فبرز إليه فارس من المسلمين فتجاولا ساعة فقتله الرومي. فصاح المشركون سروراً وانكسرت نفوس المسلمين. وجعل الكلب الرومي يجول بين الصفيين وينادي: هل من اثنين لواحد؟ فخرج إليه فارس من المسلمين فقتله الرومي. فصالح الكفار سروراً، وانكسرت نفوس المسلمين. وجعل الكلب يجول بين الصفيين وينادي ويقول: ثلاثة لواحد فلم يجترىء أحد من المسلمين أن يخرج إليه، وبقي الناس في حيرة. فقيل للسلطان: ما لها إلا أبو الوليد بن فتحون فدعاه وتلطف به، وقال له: يا أبا الوليد أما ترى ما يصنع هذا العلعج؟ فقال: ها هو بعيني، قال: فما

(١) فتحق: اغتاظ.

الحيلة فيه؟ قال: الساعة أكفي المسلمين شره، فلبس قميص كتان واستوى على سرج فرسه بلا سلاح وأخذ بيده سوياً طويلاً، وفي طرفه عقدة معقودة، ثم برز إليه فتعجب منه النصراني، ثم حمل كل واحد منهما على صاحبه فلم تخط طعنة النصراني سرج ابن فتحون. وإذا ابن فتحون متعلق برقبة الفرس، ونزل إلى الأرض لا شيء منه في السرج، ثم انقلب في سرجه وحمل على العليج، وضربه بالسوط فالتوى على عنقه فجذبه بيده من السرج فاقتلعه، وجاء به يجره حتى ألقاه بين يدي المستعين. فعلم المستعين أنه كان قد أخطأ في صنعه مع أبي الوليد بن فتحون فاعتذر إليه، وأكرمه، وأحسن إليه، وبالغ في الإنعام عليه، ورده إلى أحسن أحواله، وكان من أعز الناس إليه.

وينبغي لقائد الجيش أن يخفي العلامة التي هو مشهور بها، فإن عدوه قد يستعلم حيلته، وألوان خيله، ورايته ولا يلزم خيمته ليلاً ولا نهاراً، أو ليبدل زيه، ويغير خيمته كيلا يلتبس عدوه غرة منه، وإذا سكنت الحرب فلا يمشي في النفر اليسير من قومه خارج عسكريه، فإن عيون عدوه متجسدة عليه. وبهذا الوجه كسر المسلمون جيوش أفريقية عند فتحها؛ وذلك أن الحرب سكنت وسط النهار، فجعل مقدم العدو يمشي خارج عسكريه يتميز عساكر المسلمين فجاء الخبر إلى عبد الله بن أبي السرح وهو نائم في قوته، فخرج فيمن وثق به من رجاله، وحمل على العدو فقتل الملك وكان الفتح. وبمثل هذا قهر ألب أرسلان ملك الترك ملك الروم وقمعه، وقتل رجاله، وأباد جمعه. وكانت الروم قد جمعت جيوشاً يقل أن يجمع لغيرهم من بعدهم مثلها، وكان قد بلغ عددهم ستمائة ألف مقاتل، كئيب متواصلة، وعساكر مترادفة، وكراديس يتلو بعضها بعضاً، لا يدركهم الطرف، ولا يحصيهم العدد، وقد استعدوا من الكراع^(١)، والسلاح، والمجانيق، والآلات المعدة للحروب وفتح الحصون بما لا يحصى. وكانوا قد قسموا بلاد المسلمين: الشام، والعراق، ومصر، وخراسان، وديار بكر. ولم يشكوا أن الدولة قد دارت لهم، وأن نجوم السعود قد خدمتهم. ثم استقبلوا بلاد المسلمين فتواترت أخبارهم إلى بلاد المسلمين، واضطربت لها ممالك أهل الإسلام. فاحتشد للقائهم الملك ألب أرسلان وهو الذي يسمى الملك العادل، وجمع جموعه بمدينة أصبهان، واستعد بما قدر عليه، ثم خرج يؤمهم فلم يزل العسكران يتدانيان إلى أن عادت طلائع المسلمين إلى المسلمين. وقالوا لألب أرسلان غداً يترأى الجمعان، فبات المسلمون ليلة الجمعة، والروم في عدد لا يحصيهم إلا الله الذي خلقهم، وما المسلمون فيهم إلا أكلة جائع، فبقي المسلمون وجلين^(٢) لما دهمهم، فلما أصبحوا صباح يوم الجمعة نظر بعضهم إلى بعض، فهال المسلمون ما رأوا من كثرة العدو، فأمر ألب أرسلان أن يعدّ المسلمون، فبلغوا اثني عشر ألفاً، فكانوا كالشامة البيضاء في الثور الأسود. فجمع ذوي الرأي من أهل الحرب والتدبير، والشفقة على المسلمين، والنظر في العواقب، واستشارهم في استخلاص أصوب الرأي فتشاوروا برهة، ثم اجتمع رأيهم على اللقاء. فتوادع القوم، وتحاللوا، وناصحوا الإسلام وأهله، وتأهبوا أهبة اللقاء. وقالوا لألب أرسلان: باسم الله نحمل عليهم. فقال ألب أرسلان: يا معشر أهل الإسلام أمهلوا، فإن هذا يوم الجمعة، والمسلمون يخطبون على المنابر، ويدعون لنا في شرق البلاد وغربها، فإذا زالت الشمس، وعلمنا أن المسلمين قد صلوا ودعوا الله أن ينصر دينه، حملنا عليهم إذ ذاك. وكان ألب أرسلان قد عرف خيمة ملك الروم، وعلامته، وزيه، وزينته، وفرسه. ثم قال لرجاله: لا يتخلف أحد منكم أن يفعل كفعلي، ويتبع أثري، ويضرب بسيفه ويرمي سهمه حيث أضرب بسيفي، وأرمي بسهمي، ثم حمل برجاله حملة رجل

(١) الكراع: الخيول المعدة للحرب.

(٢) وجلين: خائفين.

واحد إلى خيمة ملك الروم فقتلوا من كان دونها، ووصلوا إلى الملك فقتلوا من كان دونه، وجعلوا ينادون بلسان الروم: قتل الملك، قتل الملك. فسمعت الروم أن ملكهم قد قتل، فتبددوا، وتمزقوا كل ممزق، وعمل السيف فيهم أياماً؛ وأخذ المسلمون أموالهم وغنائمهم. وأتوا بالملك أسيراً بين يدي ألب أرسلان، والحبل في عنقه. فقال له ألب أرسلان: ماذا كنت تصنع بي لو أسرني، قال: هل تشك أنني كنت أقتلك. فقال له ألب أرسلان: أنت أقل في عيني من أن أقتلك اذهبوا به فيبعوه لمن يزيد فيه، فكان يقاد والحبل في عنقه، وينادي عليه من يشتري ملك الروم. وما زالوا كذلك يطوفون به على الخيام، ومنازل المسلمين وينادون عليه بالدرهم، والفلوس فلم يدفع فيه أحد شيئاً حتى باعوه من إنسان بكلب، فأخذه الذي ينادي عليه، وأخذ الكلب وأتى بهما إلى ألب أرسلان، وقال: قد طفت به جميع العسكر، وناديت عليه، فلم يبذل أحد فيه شيئاً، سوى رجل واحد دفع فيه هذا الكلب. فقال: قد أنصفك، إن الكلب خير منه. ثم أمر ألب أرسلان بعد ذلك بإطلاقه، وذهب إلى القسطنطينية. فعزلته الروم وكحلوه بالنار.

فانظر ماذا يأتي على الملوك إذا عرفوا في الحرب من الحيلة، والمكيدة. اللهم انصر جيوش المسلمين، وعساكر الموحدين وأهلك الكفرة والمشركين، وانصر المسلمين نصراً عزيزاً برحمتك يا أرحم الراحمين. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم والحمد لله رب العالمين.